البعد الأخلاقي في تصوف الغزالي

أ.م.د. مجيد مخلف الدليمي
كلية الآداب – جامعة بغداد

المقدمة :

لقد كتب الكثير عن الغزالي ، وأقول أن البحث فيه يتحمل اكثر من الكثير. ولا يزال هذا الاسم يستقطب أنظار رجال العلم والمعرفة تأليفاً وترجمة ودراسة. فهو شخصية فكرية موسوعية كبيرة خالدة ليس في سيرتها فحسب وإنما بتراثها وعطائها الثر وفي تعدد جوانبها واتجاهاتها ومواقفها الفكرية والروحية أيضاً . حتى أصبح الوقوف على حقيقتها وغاياتها ومراميها أمراً في غاية الصعوبة . فقد كان لهذه الشخصية رغبة جامحة في العلم والمعرفة والتطلع للتدريس ونشر الدين وفيها طموح لمناصب الحياة وأنتابها نوع من الشك والحيرة والقلق مصحوب بنقد وتأمل جعلها تعيش تجارب عقلية وروحية صعبة وقاسية حتى استقر بها الأمر في نهاية المطاف عند شاطئ التصوف فوجدت فيه يقينها الفكري واطمئنانها النفسي.

أما من حيث الانتاج والتأليف . فيعد الغزالي من أكثر مفكري الإسلام مادة ومن أكثرهم تنوعا وتأليفاً . وقد اشارت المصادر المعتمدة إلى مؤلفاته ذاكرة أياها بالتعداد والأحصاء . إذ قدرت بنحو ثلثمائة مؤلف لم تتنوع في موضوعاتها فحسب وإنما في أسلوبها ومنهجها أيضاً ، فمن حيث الموضوعات تجد فيها أغلب حقول المعرفة من فقه ودين وكلام وأخلاق وتصوف وتربية ومنطق وغيرها وأمتاز أسلوبها بالدقة والسهولة والوضوح . والأشراق يعتريه نوع من القصور والتعقيد لكي يطوي بعض معاني العامة ويخص بها الخاصة وأحياناً يتفنن في التشبيه وتصوير الأشياء المعنوية أو العقلية بصورة حسية تقربها من الأذهان . وفي

المنهج يسلك أحياناً طريق البراهين العقلية وتارة يقف على النصوص الدينية وثالثة يلجأ إلى الجدل الكلامي والفلسفي ورابعة يسير في طريق الكشف الصوفي.

إذن هذا هو الغزالي وهذا هو فكره وشموليته أنه بأختصار موسوعة فكرية كبيرة لا يمكن أن تستوفيها البحوث على كثرة عددها وتنوع موضوعاتها ، لأنه كما وصفه أستاذه الجويني بحر مغدق أو بحر مغرق :

فكيف لهذا البحر أن ينصب ؟ نعم أنني أتفق مع كل القائلين أن الغزالي قد حظي بأهتمام وعناية الباحثين والمؤلفين ما لم يحظ به أي مفكر وفيلسوف إسلامي وهذه حقيقة لا يختلف فيها أثنان . وأتفق معهم أيضاً في القول ((لم يعد البحث في الغزالي مفكراً وفيلسوفاً ومتكلماً ومتصوفاً فيه طراوة الجدة والأصالة ... لأن البحث الأكاديمي قد استوفى ما لهذا العملاق من حقوق عليه .. وقيل فيه كل شيء.. فكان لكل ذلك أن يقال شيء جديد في الغزالي أمر محفوف والصعوبات))[1] . لكنني لا أتفق معهم بأن ما كتب عنه يشكل نهاية المطاف لهذه العقلية التي استطاعت وبجدارة وكفاية عاليتين أن تهضم وتجترف فكر زمانها لتكون فيما بعد الممثل الحقيقي لهذا الفكر .

الشيء الجديد الذي يمكن أن يقدم عن الغزالي هنا هو إذا تجاوزنا المشكلات والموضوعات الأساسية لفكره التي استنفذ فيها البحث والنفوذ إلى الجزيئات التي تنضوي تحتها ومحاولة ربط هذه الجزيئات بالإطار العام للمشكلة الأساسية لكي نرى مدى حقيقة التوافق بين هذه الجزئية والخطوط الأساسية للمشكلة أو الموضوع المنظوية تحته . وهذا ما سنحاوله في هذا البحث المتواضع الذي يحمل عنوان ((**البعد الأخلاقي لتصوف الغزالي**)) وهي محاولة تأمل لها أن تكون جادة في بيان العناصر الأخلاقية في تصوف الغزالي وكيف جاءت هذه العناصر منسجمة مع حقيقة تجربته الصوفية أو الروحية .

وقد أخترت هذه الجزئية لسببين الأول أن هذا الرجل يعد من إئمة التصوف، والتجربة الصوفية كانت عنده المحطة الأخيرة التي أنتهت إليها جهوده

الفكرية والروحية فوجد فيها الحقيقة كاملة ولهذا نال به شهرة واسعة أكثر من شهرته بغيره . والثاني أن تصوف الغزالي يفيض بعناصر أخلاقية فليس التصوف كله أخلاقاً أو كله أدباً كما يعتقد بعضهم فهناك نوع من التصوف ، ولاسيما المتطرف منه ، لا يمت للأخلاق بصلة أن لم نقل منافيا للأسس التي ينبغي أن تقوم عليها الأخلاق ففيه عناصر غريبة وشاذة تجعلنا نبعده عن دائرة الأخلاق . بينما تصوف الغزالي قائم على أساس أخلاقي واضح وهو التخلق بأخلاق الله فقال أن كمال العبد وسعادته التخلق بمعاني صفاته وسماته .

جاء البحث بمقدمة وثلاث مباحث ، تناولت في المبحث الأول التعاريف الأخلاقية للتصوف كما وردت على السنة علمائه وإن كانت أغلب تعريفات التصوف إن لم نقل جميعها جاءت . ذات مضامين أخلاقية لكنني ركزت على التعاريف التي أنحصرت كلماتها بدلالة الأخلاق فقط ، أي التعاريف التي حاولت أن تربط التصوف بالسلوك البشري الأخلاقي كتعريف أبي الحسن النوري وتعريف أبي بكر الكتاني وأبي محمد الجريري والقشيري وابي حفص الحداد وأبي القاسم الجنيد . أما المبحث الثاني فقد خصص لدراسة المؤثرات الأساسية لتصوف الغزالي التي ساعدت أكثر من غيرها على بلورة فكر الغزالي الصوفي وتحديد مسار اتجاهاته الروحية ويأتي في مقدمتها النشأة الفقيرة والحياة البسيطة والمتعففة التي عاشها الغزالي في طفولته وحالة اليتم التي عاناها كذلك رحلاته وتنقله بين أهم مراكز الحضارة الإسلامية آنذاك وهي بغداد ونيسابور ودمشق وبيت المقدس وغيرها من حواضر العالم الإسلامي فضلاً عن الأثر الكبير والمهم وهو شيوخه من الصوفية فقد كان لهذا الأثر بصمته الواضحة على حياته الصوفية وهذا ما صرح به هو نفسه في مؤلفاته ولاسيما ((المنقذ من الضلال)) بينما جاء المبحث الثالث والأخير بيان النصوص الصوفية للغزالي والتي تحمل مضامين أخلاقية ، فلم أدخل في حيثيات التصوف فقد كتب فيها الكثير ولا في تفصيلات الأخلاق فما كتب فيها ليس أقل مما كتب في التصوف . فقد ألف في الاثنين كتب كاملة ومنفردة[٢] . وتصوف الغزالي بشكل عام هو فلسفة حياة وطريقة معينة في

السلوك يتخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي وتحقيق سعادته الروحية ، فهو يهدف إلى تصفية النفس من أجل الوصول إلى تحقيق قيم أخلاقية فاضلة وهذه الغاية لا تحقق عنده إلا بأتباع مجاهدات بدنية ورياضيات نفسية معينة وزهد في ماديات الحياة فهو يهدف بالدرجة الأولى إلى قهر دواعي شهوات البدن أو ضبطها وإحداث نوع من التوافق النفسي الذي يحقق السعادة للإنسان فوجدت الغزالي قد عمق الكلام فيها وأفرد لها رسائل عديدة وهذا ما يقودنا إلى القول أن تصوف الغزالي وجد قبولاً وانتشاراً وتقديراً واحتراماً ليس من العامة فحسب وإنما حتى من رجال الفكر والثقافة ، لذا كان الغزالي خير من مثل التصوف الإسلامي لا لشيء الا لكونه أقام هذا التصوف على أسس علمية وعملية وأخلاقية .

المبحث الأول

التعاريف الأخلاقية للتصوف

لقد عرف التصوف بتعاريف عدة مختلفة في ألفاظها متحدة في معناها وقد قدرت هذه التعريفات بنحو مئة تعريفا[٣] ذكر منها عفيفي خمسة وستين[٤] . أغلب هذه التعريفات أن لم نقل جميعها ذات دلالات أخلاقية ، أما في اللفظ أو في المعنى لأن غاية التصوف في بدايته أو نشأته هي غاية أخلاقية تسعى إلى تهذيب النفس وأصلاحها ولهذا عد التصوف أخلاقيات أو بعبارة أدق أن الأخلاق والسلوك أساس التصوف ومن هنا كان التصوف روح الإسلام انطلاقاً من إدراك الصوفية في الإسلام أهمية الأساس الأخلاقي للدين ، لأن الدين في جوهره منهج أخلاقي بين العبد وربه من جهة وبينه وبين نفسه من جهة ثانية وبينه وبين أسرته من جهة ثالثة ولما كان المقام لا يتسع هنا لبيان البعد الأخلاقي لكل هذه التعريفات أجتهدنا أن نقف عند التعاريف التي حصرت التصوف بدائرة الأخلاق لفظة ومعنى التي مثلت فعلاً الأساس أو حقيقة التصوف الإسلامي[٥] .

يأتي في مقدمة هذه التعريفات تعريف أبي الحسن النوري[٦] الذي يقول فيه ((ليس التصوف رسماً ولا علماً ولكنه خلق لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ولو كان علما لحصل بالتعلم ولكنه تخلق بأخلاق الله)) [٧] . فالتصوف بهذا المعنى خلق قبل كل شيء وخلق مرتبطة بطبيعة النفس المهيأة له ، بحيث تنقاد له بسهولة من دون تعلم ولا برسم بل ولا يمكن أن تنقاد له برسم أو بعلم لأنه ليس بعلم ولا برسم . وإنما هو فوق هذا وذاك ويصبح صفة تطبع بالنفس بحيث تتحكم في كل ما يصدر عنها من أعمال وما يخطر بها من خواطر[٨] .

أما تعريف أبي بكر الكناني[٩] فيقول فيه ((التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء)) [١٠] فالتصوف هنا بحد ذاته خلق يهدف إلى تصفية النفس وتطهيرها من رغباتها وشهواتها الجسدية ، فمن يجسد هذه الصفة في حياته فقد تخلق بأخلاق الباري ومن زاد على غيره بها زاد عليه أيضاً في صفة التصفية وفعل التطهير ، وهو الشخص الذي صفى ربه قلبه فامتلأ قلبه نوراً ودخل في عين اللذة بذكر الله تعالى .

في حين عرف أبو محمد الجريري[١١] التصوف بأنه ((الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني)) [١٢] وهو تعريف يحاول فيه قائله أن يرجع التصوف إلى الشريعة وأخلاقها ومحاولة التمسك بسلوكها وقيمها وفضائلها فالتعريف مرتبط بالكتاب والسنة أو يربط بين التصوف والشريعة والذي يغلب عليه كما نلاحظ الطابع الأخلاقي في تربية النفس وأصلاحها[١٣] فيحصر معنى التصوف بدائرة الأخلاق الإسلامية والصوفي هو الرجل الذي يلزم حدود أخلاق حد هذه الدائرة ولا يخرج عنها .

بينما يشير أبو حفص الحداد[١٤] إلى أن التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ولكل مقام أدب ولكل حال أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو يبعد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول[١٥] . وهنا إشارة واضحة إلى المعنى الأخلاقي للتصوف بعده نظام اخلاقي سلوكي فاضل

ومتكامل يرتبط كل الارتباط بمفاهيم الرجولة والكمال فمن لزم هذه الآداب أستحق وصف الرجال وبلغ مقامهم وإن لم يكن كذلك ولا يتصف بصفاتهم أو خصائلهم فلا يمكن أن يقبل أن يكون قريباً منهم أو من مقامهم .

أبو القاسم الجنيد[١٦] وصف الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها ألا كل مليح[١٧] . وهي دلالة واضحة على أن حياة الصوفي الباطنية منها والظاهرية فيها بواعث الخير والشر والطاعة والمعصية لكن مع ذلك كله فأنه يعتقد لا يخرج منها إلا ما هو خير وطاعة[١٨] ، وله أيضاً قول في التصوف يؤكد فيه المعنى الأخلاقي ((التصوف تصوف القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ومفارقة أخلاق السلبية وأخماد صفات بشرية ومجانبة دعاوي النفسانية ومنازلة صفات الروحانية والتعلق بعوم الحقيقة والعمل بما هو خير والنصح لجميع الأمة والأخلاص في مراعاة الحقيقة وإتباع النبي (ﷺ)[١٩] فالقلب عنده وعند كل الصوفية هو الأداة التي يمكن من خلالها الحصول على الإلهام الصوفي وبقدر جلاء القلب وصفاته وإزالة الآثار السلبية فيه يصبح مرآة للصوفي إذا نظر فيها تجلى له مولاه[٢٠] وبتحقيق هذا الأمكان بمحاولة الصوفي الأبتعاد عن عالم البدن والحس فالروح على وفق المبدأ الصوفي حبيسة في البدن وهو بمثابة السجن لها لذا فهي تسعى دائماً للخلاص والتحرر من قيوده لكي تصل إلى عالم الحقيقة [٢١] .

أما تعريف محمد بن علي القصاب فيقول فيه ((التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من أجل رجل كريم مع قوم كرام)) [٢٢] وكما دلت التعاريف السابقة على المعنى الأخلاقي للتصوف نلاحظ أن هذا التعريف لا يخرج عن هذا المعنى ويتفق مع مثيلاته من التعاريف فيصف التصوف أو يعرفه بمعنى الأخلاق الفاضلة السخية وكذلك يصف زمانه بذلك ورجاله أيضاً .

وكما عبر رجال الصوفية عن المعنى الأخلاقي للتصوف في تعاريفهم التي أشرنا إليها ، فقد عبر أبن عربي عن هذا المعنى بهذه الأبيات الشعرية التي يصف بها حقيقة هذا العلم (التصوف) .

بقولـــــه :

أن التصوف تشبيه بخالقنا

لأنه خلق فأنظر ترى عجبـا

كيف التخلق والمكر الخفي له

في خلقه وبهذا القدر قد حجبا

وذمه في صفات الخلق فاعتبروا

فيه فذاً مثل للعقل قد ضربـا

كذلك الخلق المذموم يرجـــع

محموداً إذا هو للرحمن قد نسبا

أن التصوف أخلاق مطهـــرة

مع الإله فلا تعدل به نسبـــا(٢٣)

فالتصوف عند أبن عربي هو أخلاق وأي أخلاق ؟ أخلاق الله تعالى ، لـذا يدعو إلى التشبه به ويحث على مكارم الأخلاق وضرورة التحلي بها .

وأخيراً وجد أبن خلدون أن التصوف كله راجع إلى مجـاهدة وسـلوك(٢٤) فالتصوف عنده يقوم على الزهد والتقشف وقهر النفـس ومجاهدتـها وتصفيتـها بضروب من الحرمان والتعذيب لكي تسلك طريق الفناء وتحقيـق غايتـها وهـي السعادة الدنيوية والآخروية .

ومن هنا نلاحظ أن كثرة التعاريف الأخلاقية للتصوف أصبحـت تـترای للسامع كان التصوف هو الخلق .

المبحث الثاني

المؤثرات الأساسية لتصوف الغزالي

لا يستطيع الباحث أو الدارس أن يعزل المؤثرات الأساسية التي ساعدت على تكوين ثقافة الغزالي العامة عن العوامل التي أدت به إلى الحياة الصوفية أو الروحية . وعليه يمكن القول . أن هذه العوامل هي ذاتها أو القسم الأكبر منها على اقل تقدير قد أدى دوراً أساسياً في تصوفه . وسوف أشير أولاً إلى أهم المؤثرات التي أعلن عنها هو نفسه ووردت نصوص منها في مؤلفاته ثم بعد ذلك أجتهد الباحثون من قبلي في بيان العوامل الأخرى التي أرى كان لها نصيب في اتخاذه التصوف منهجاً في الحياة .

يقف في مقدمة هذه المؤثرات القرآن الكريم . وهذا ما لا يختلف فيه أثنان سواء أعلن عنه الغزالي أو لم يعلن . فهذه حقيقة تلمس أثرها في الغزالي ليس في الجانب الصوفي فحسب وإنما في عموم حياته الفكرية والثقافية . فيندر أن تخلو صفحة من صفحات كتب الغزالي من أية قرآنية كريمة يستشهد فيها على رأي يريد أن يقوله أو يبتدأ الحديث عنه ولنا من كتاب الأحياء خير دليل على أثر القرآن الكريم عليه في مجال تصوفه .

أما ما يتعلق بالنصوص التي أشار إليها الغزالي نفسه من حيث كونها مؤثرات في تصوفه فهو يقول ((فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي[٢٥] . رحمه الله وكتب الحارث المحاسبي[٢٦] . والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي[٢٧] وابي يزيد البسطامي[٢٨] وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى أطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع)) [٢٩] .

أما أثر شيخة الصوفي يوسف النساج فقد وصفه الغزالي بقوله (كنت في مبدأ أمري منكر لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي

((يوسف النساج)) فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعالى في المنام .... فاستيقظت فرحا مسروراً وجئت إلى شيخي ((يوسف النساج)) فقصصت عليه المنام فأبتسم وقال يا أبا حامد هذه الواحنا في البداية بل أن صحبتي ستكمل بصيرتك ... حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار فتصفو من الأكدار طبيعتك وترقى على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى ((أني أنا الله رب العالمين)) (٣٠) .

هنالك حادثة وقعت للغزالي وهو في طريق عودته من جرجان إلى طوس وفيها نلمح باكورة من بواكير تأثره بالجانب الديني والصوفي حيث يستنبط من بعض الكلمات أو الإشارات رموزا ومعاني ذات صلة بالأتعاض والأعتبار يقول ((قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتعقبتهم فألتفت الى مقدمهم وقال :

أرجع ويحك وإلا هلكت فقلت له :- اسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقي فقط فما هي بشيء تنتفعون به فقال لي تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال كيف عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة فتركت هذه الحادثة في نفسي أثراً كبيراً وقلت في نفسي هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني في أمري فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتعال ثلاثة سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم تجرد من علمي(٣١) .

أما ولادته في بيت فقير ونشأته مع عائلة بسيطة يعتمد دخلها على مهنة الوالد الذي كان يبع الصوف في مدينة طوس ، فلا يقل أثرهما عن العوامل الأخرى إن لم نقل أكثر فقد كان لهما دوراً في طبع حياة الأب بصفتي الزهد والتصوف فكان تقياً ورعاً متعففاً قانعاً بما يأتيه من الرزق الحلال الذي يكسبه بيده فقادته هذه الحالة إلى أن يحب ويختلط بالفقراء والزهاد والصوفية العلماء فكان يكثر من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى عسى أن يرزقه ولداً صالحاً بصيراً عالماً

فقيهاً واعظاً مثل هؤلاء الناس الذين كان يخالطهم[٣٢] . وحتى بعد وفاته فقد أوصى صديق صوفي له أن يتعهد تربيتهما الغزالي وأخيه أحمد وفعلاً نفذ هذا الرجل التقي وصية الوالد فاحسن تربتها ورعايتهما وكان حريصا على أداء الأمانة كما ينبغي فلم يكن رجل ينفذ وصيته وإنما كان بمثابة الأب الذي يربي أولاده فغرس فيهما الأخلاق والأداب المثالية التي تقوم على الزهد والقناعة والعزوف عن الدنيا والاتجاه إلى الآخرة[٣٣] فالبداية الأولى لحياة الغزالي كانت صوفية قبل كل شيء وهذا ينفي أولاً قول بعض الباحثين الذين شككوا بحقيقة تصوف الغزالي لأن الغزالي أشار بنفسه في كتاب المنقذ بأنه ظل يحب الأولاد والمال وعاد إلى الوطن يخشى السلطان خلال مدة خلوته وبعدها وكأنهم لم يفهموا حقيقة تصوف الغزالي ونظروا إليه على أنه العزلة التامة والانقطاع الكلي عن الحياة العامة .

وثانياً رأي الآخرين بأن تصوف الغزالي بدأ بعد شفائه من مرضه أو شكه الذي دام أكثر من شهرين فأتجه بعد ذلك إلى الزهد في الحياة والاتجاه الكلي نحو السمو الروحي فعدت هذه الفترة بداية التصوف عند الغزالي[٣٤] . فالرجل قد عرف التصوف دارساً منذ شبابه وعرفه متذوقا ومارساً بعد تجربته الروحية العميقة .

يضاف إلى كل ما تقدم يمكن أن نعد حالة اليتم التي عاشها الغزالي التي كانت ما طرت بغطاء فقر مادي على الرغم من أن الرجل الذي أوصاه والد الغزالي وكلفه برعايتهما قد انفق عليهما لكن لم يتمكن الاستمرار في الأنفاق بعد أن نفذ ما تركه له والد الغزالي من مال ولكونه فقير الحال أيضاً فاقترح عليهما بالانضمام إلى احدى المدارس التي كانت تنفق على طلابها الوافدين لمواصلة عطاءهم العلمي[٣٥] . أقول أن ذلك كله يمكن ان نعده واحد من العوامل التي كان لها دوراً أساسياً في تحديد المعالم الفكرية والصوفية في شخصية الغزالي . فجاءت هذه الشخصية ذات نزعة دينية وصوفية واضحة .

ويمكن أن تضيف مؤثراً آخر هو ميول وتطبيقات عائلة الغزالي واستعداداتها كانت صوفية تفضل فيها حياة الآخرة على حياة الدنيا الزائلة الفانية وقد عززت هذه الميول والاتجاهات المنهج الذي رام سلوكه الغزالي منذ طفولته وأرتضاه لنفسه بل ودعا غيره ليسير فيه ، والمتتبع لتفاصيل حياة الغزالي يستشف تلك الرغبة القوية والطموح الكبير اللذين يدفعان أبا حامد لتحصيل العلوم والمعرفة وسعيه المتواصل لبلوغ الحقيقة[٣٦] فتجاوز بكل صبر وأصرار وعزيمة كل العوامل التي حاولت أن تقف عوائق بأتجاه مسيرته العلمية وبالذات منها الفقر المادي واليتم الأبوي .

كما أسهمت رحلاته وسفره وتنقله في أهم المراكز الحضارية الإسلامية إلى حد ما في تعزيز هذا الجانب من حياته ، فبعد أن تلقى علومه الأولية في مسقط رأسه مدينة طوس على يد أحمد الراذكاني وهو من كبار الفقهاء في مدينة طوس . انتقل إلى جرجان وجالس الإمام أبي القاسم بن مسعده الأسماعيلي ثم أصبح الجويني[٣٧] الذي أخذ منه الغزالي مذهب الاشاعرة ثم غادرها قاصداً نظلم الملك في معسكره حيث كان يحضر مجالسه وهو المعروف بحبه للتصوف وشدة تعلقه بالصوفية وتعصبه لهم ويسرف في البذل عليهم ويبدو أن الغزالي قد شاهد ميل الوزير إلى التصوف وعنايته بالصوفية . فهذه المشاهدة أو جدت عند الغزالي من دون شك التفاتا إلى التصوف واتصالاً به وبرجاله[٣٨] بعدها تولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد وكانت بغداد حاضرة علم ومعرفة ومركز للخلافة العباسية عاصر فيها الغزالي أحداث سياسية مهمة وكبيرة نذكر منها على سبيل المثال مقتل الوزير السلجوقي نظام الملك وموت السلطان السلجوقي ملك شاه ووفاة الخليفة المقتدي بأمر الله وتولية الخليفة المستظهر بالله أمور الخلافة[٣٩] كما شهد الغزالي في هذه المدة العديد من التيارات الفكرية والصراعات المذهبية التي كانت تعج فيها مدينة بغداد فكان لكل هذه الأحداث فعلها في أن تؤدي فيما بعد إلى أزممته الشكية قبل أن يتجه كليا إلى حياة العزلة والتصوف ، بعدها ترك بغداد وسلك طريق الزهد والأنقطاع وقصد الحج ولما رجع توجه إلى الشام فأقام في

مدينة دمشق وهو قد تحول تماماً إلى حياة الصوفية وبدأ يدرك حقائق الدين بالذوق والسلوك بل تأثر في حياته وتصرفاته تأثراً جوهرياً بالنزعة الصوفية .

المبحث الثالث

الملامح الأخلاقية في تصوف الغزالي

كان لابد لحياة الغزالي ان تنتهي إلى حياة التصوف ولابد أن يسلكه طريقا ومنهجا في الحياة لا بسبب اخلاصه لتلك النشأة المبكرة التي نشأ عليها والمبادئ التي تربى عليها بمختلف مراحله فحسب وأنما كان يرى انه الطريق الوحيد الموصل الى الحق الذي لا لبس فيه فقد قال عنه "وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .. وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والأنابة إلى دار الخلود والأقبال بكنه الهمة على الله تعالى[٤٠] . هذه النتيجة التي انتهى إليها الغزالي ليس في حياته الصوفية الزاهدة فحسب وإنما في مؤلفاته ايضاً حيث جاءت أغلب هذه المؤلفات في التصوف والأخلاق بل ما كان منها بالتصوف نحو خمس وعشرين كتابا من بينها كتابه الشهير الأحياء[٤١] .

لم يمارس الغزالي أو يسلك الطريق الصوفي من دون علم أو دراية وتفكير ولم ينقاد إليه بعاطفة وإنما كان كل ذلك بدراسة وتبصر وفهم دقيق لكل العلوم والاتجاهات التي عاصرها في حياته فوجد فيه الحقيقة الكاملة التي عجزت العلوم الأخرى من الوصول إليها أولاً . ووجد فيه حقيقة السلوك الفاضل الذي يحقق لصاحبه الخير والسعادة ثانياً . لهذا نجده يكثر من مدحهم والثناء عليهم وعلى

طريقتهم فيقول "أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم احسن سيرة وطريقتهم أصوب الطرائق وأخلاقهم أزكى الأخلاق"[٤٢].

فميل الغزالي للتصوف جاء بدوافع أخلاقية ، لأن التصوف يقوم بالأصل على نزعة دينية خالصة غايتها الزهد وتربية النفس وأصلاحها وسيرها على وفق قواعد شرعية وتربوية وسلوكية ترمي إلى تهذيب السلوك البشري وتنظيم حياة الفرد والجماعة فالغزالي هنا رائد محاولة فكرية أخلاقية كبيرة في الفكر الإسلامي حاول من خلالها دمج الجانب الديني والصوفي بالأخلاق فكان شديد الحرص على تحري النظائر الشرعية في القرآن الكريم والحديث الشريف للمفاهيم او القضايا الأخلاقية ، وفعلا استطاع ان يقدم أنموذجاً أخلاقيا رائعاً لم يضارعه فيه أحد[٤٣]، فهو لم يساير من تقدمه من فلاسفة الإسلام الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وإنما فهم الأخلاق بأنها علم يشرح طرائق السلوك وفقاً لما سنته الشريعة السمحة والصوفي هو الذي تكون جميع أفعاله الأختبارية موزونة بميزان الشرع واشترط في المتصوف خصلتين اخلاقيتين هما الأستقامة وحسن الخلق فمن استقام واحسن خلقه مع الناس وعاملهم بالحلم فهو صوفي[٤٤] . فضل الغزالي على الأخلاق أنه اضفى عليها معنىً إسلاميا إذ جعلها مرادفة للتصوف أو معرفة ما للنفس من الاعتقادات وفضله على التصوف الإسلامي هو أنه أصبح علما مدونا بعد أن كان عبادة فقط يتلقى المتصوف أحكامها وآدابها بالرواية يأخذها كل مريد عن شيخه[٤٥] .

لقد أتجه الغزالي بالتصوف اتجاها أخلاقيا فكان مفهومه ونهجه وهدفه عنده فعل الخير والزهد في الحياة[٤٦] ، والخير عنده "ليس ما قرره العقل وحده بل ما قرره العقل المتأدب بالشرع"[٤٧] ويتحقق بالملاحظة الدقيقة لكشف عيوب النفس وذنوبها بغية تجنبها[٤٨] ويصل من كل ذلك إلى معرفة أخلاق الله تعالى لأن "كمال العبد وسعادته هو التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه"[٤٩] فغاية الطريق الصوفي عند الغزالي هو الترقي الخلقي للنفس برياضة روحية عملية تتخلص من خلالها النفس من كل ما يتعلق بها من الشهوات الحسية الآفات

المعنوية وحب الدنيا ، حتى يغلب حب الله تعالى على القلب فتقوى معه الإرادة وتصح به النية فالقلب حين يرتقي إلى أعلى عليين يكون تحقق كمال معرفته بالله وفاضت منه السعادة[٥٠] فالسعادة لا نحصل عليها بالنظر والتعلم فقط بل بالذوق والحال والمعاناة والسلوك[٥١] ، وأداة هذه الطريق هو القلب فهو الوسيلة التي نستطيع من خلالها أن نميز بين الخير والشر بما يخطر فيه من خواطر تدعو الصوفي إلى كل خير وشر فالخير والمعرفة والكمال والسعادة كلها حالات ناتجة من تجربة داخلية وهي من عجائب القلوب لا ثمرات العقول[٥٢] وهكذا يصبح التصوف عند الغزالي ذوقاً عملياً وهو صاحب نزعة عملية وهو صاحب نزعة عملية فيه لا نظرية فلسفية وإن كانت التجارب الصوفية عموما لا يوجد فيها نسقا متكاملاً يصلح أن يكون مذهبل فلسفيا في الأخلاق لكن مع هذا لم نجد من المفكرين الأخلاقيين من ينكر أن تصلح هذه التجارب الرياضية لأن تكون مذهبا فلسفيا متكاملاً[٥٣] .

لقد قدم الغزالي دراسات نفسية مستفيضة حول خلجات القلوب وهواجس النفوس بعدها بداية الأعمال ومنشأ الأفعال ويعلل ذلك أن شخصية الإنسان لا في ظاهر السلوك وإنما في الخلق والخلق أهم مظاهر الشخصية بعده هيئة في النفس عنها تصدر جميع الأفعال فأن صدرت عنها أفعال جميلة ومحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسناً وإن كان عكس ذلك سميت خلقا سيئاً فليس الخلق هو الفعل بحد ذاته وإنما هو الهيئة التي يصدر عنها الفعل[٥٤] ، فالأخلاق الفاضلة تحصل لدى الإنسان عندما تتحرك قوى النفس داخل الجسد فتحركه بواجب الشرع فيتولد منها الأخلاق الجميلة[٥٥] ، فالأخلاق عنده ليست مجرد سلوك يمارسه الإنسان بقدر ما هي سلوك لا يصدر إلا عن إيمان أعتقادي يبدأ أولاً بالقلب الذي يحرك الإرادة بدورها تحرك السلوك[٥٦] . فنحن أما حالة من التداخل بين الدين والحالات الأخلاقية في التصوف أي لابد أن يسبق السلوك الأخلاقي أعتقاد ديني يشع في النفس حالة من السكون أو الرضا يعقبها صدور الأفعال الذي يصدر عن الإيمان أو عن أصول اعتقادية وهذه الأصول هي التي تكون ما نسميه بالنية في

الأخلاق . ولهذا نجد أن الغزالي يؤكد دور النية في أخلاقية العمل . لأن الأعمال بالنيات وهي تشكل أحد الأركان الأساسية للسلوك الأخلاقي ليس عند الغزالي فحسب وإنما في الفكر الأخلاقي الإسلامي عموماً ، لأنه لابد أن تكون هنالك حالة من التطابق بين شكل الفعل ومضمونه أو بين روحه ومادته وروح السلوك عند الغزالي هي النية ، فمن نوى نية حسنة فله أجر العمل بها وإن لم يستطع إلى ذلك سبيلاً وكذلك من نوى نية سيئة فعليه وزر العمل بها . فبالنية تصلح الأعمال وبها تفسد وبها تعظم وبها تصغر . والمقصود بالنية هنا أنبعاث داخل النفس وميل شديد نحو الأفعال التي يعتقد انها خير لها عاجلاً أم آجلاً لذا أوجب الغزالي على الفرد أن تخلص نيته وأن يصفو قلبه من شوب الأقذار حتى لا تفسد الأعمال(٥٧) .

يقترن مفهوم الإرادة مع مفهوم النية عند الغزالي فيقول "النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصف القلب ... ومعنى الإرادة أنبعاث القلب لما يراه موافقاً للغرض أما في الحال وإما في المال"(٥٨) وكذلك يؤكد ذلك بنص آخر "النية هي الإرادة الباعثة للقدرة المنبعثة عن المعرفة وبيانه أن جميع الأعمال لا تصلح إلا بقدرة وإرادة"(٥٩) .

لقد ناقش الغزالي العديد من الفضائل الأخلاقية الصوفية وأفاض فيها في كتابه الأحياء لأنها الأخلاق المحمودة التي أرادها وحصول هذه الأخلاق لا يتم إلا بسلوك الطريق الصوفي الذي يحصل بالعلم والعمل الأول هو معرفة النفس بأحوالها وصفاتها وبواعث أفعالها والثاني بسلوك سبيل الرياضة والمجاهدة للنفس وهذه الرياضة عند الغزالي هي تطبيق المقامات الصوفية التي هي عبارة عن قواعد تدريبية القصد منها تهذيب النفس الصوفية وتقويم أفعالها وهي مهمة وضرورية للإنسان وتحتاجها النفس مثلما يحتاج البدن الرياضة والتدريب من أجل صحته وكما أن مهمة الطبيب معالجة البدن لكي يحفظ صحته وتوازنه وسلامته كذلك هو شأن المرشد والشيخ مع النفس ، فشفاء النفس يكون على يد شيخ

صوفي[٦٠] وهو الذي يعمل على أخراج الأخلاق الذميمة منها ليحل محلها أخلاق محمودة ويؤكد ذلك بقوله "وينبغي للسالك شيخ مرشد مرب ليخرج الأخلاق الذميمة منه بتربيته ويجعل مكانها اخلاقاً محمودة ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه"[٦١].

بواعث الأخلاق الصوفية عند الغزالي عديدة يأتي في مقدمتها باعث التوبة ويبدأ الحديث بدلالة ظاهر القرآن الكريم عليها إذ قال تعالى "**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**"[٦٢] والتوبة عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة أمور وهي العلم والفعل والحال وهذه الأمور مترابطة فيما بينها وأحدها يؤدي إلى الآخر فالعلم بضرر الذنوب يولد في القلب حال وهو الخوف من فوات المحبوب وهذه الحال هي الندم وبأستيلاء الندم يؤدي إلى أثارة إرادة التوبة وتلافي ما مضى[٦٣] وهي على أنواع وبحسب أحوال الناس توبة الذنوب الظاهرة وتوبة الصالحين من الأخلاق الذميمة الباطنة وتوبة المتقين وتوبة المحبين وتوبة العارفين. والتوبة تكون عن جميع الذنوب صغيرها وكبيرها وتقبل التوبة إذا توافرت شروطها لأنها تصقل النفس وتقودها إلى فضائل الأخلاق وتبعدها عن الرذائل[٦٤].

أما الصبر والشكر فهما ركنان أساسان للإيمان لأن الإيمان نصفه صبر والنصف الآخر شكر والجهل بحقيقته جهل بشطري الإيمان[٦٥] يستشهد الغزالي بآيات قرآنية كثيرة على أهمية هذه الفضيلة وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف عديدة وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال الله تعالى "**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**"[٦٦] والصبر منه مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وللصبر ثلاث مراتب في قوته وضعفه[٦٧] أعلاها وهي قمع داعية الهوى كلية بحيث لا يبقى لها قوة على البقاء وتحصل بالتعود المستمر وأوسطها تكمن في محاربة الشهوات بأستمرار المجاهدة

على قدر الأستطاعة وعلامتها أن يترك من الشهوات ما هو أضعف والعجز عما هو أقوى أو التغلب عليه في وقت آخر ، وأدناها وهي تغلب داعية الهوى على باعث الدين وأستسلام القلب لجند الشيطان وعلامتها اشتياق إلى التوبة مع القنوط فهو من الهالكين أو أنه أسير صار عقله أسير شهوته[٦٨] .

أما الشكر فهو معرفة أن لا منعم إلا الله فإذا عرف الفرد تفاصيل نعمة ربه في أعضائه وجسده وروحه وجميع ما يحتاج إليه من أمور معيشته ظهر في قلبه فرح بالله وبنعمته وتفضله عليه فيحرص في العمل بموجبه بالقلب واللسان وسائر الجوارح[٦٩] .

بعد ذلك يتحدث الغزالي عن الرجاء والخوف وهما أيضاً من المقامات الصوفية والعمل بها يكون سببا لحصول الأخلاق الحسنة والمحمودة فالرجاء ارتياح القلب لأنتظار ما هو محبوب ويرى الغزالي مقام الرجاء أعلى من الخوف لأن رجاء الخير يقرب ويحبب أما الخوف فهو موجب الهرب[٧٠] وإذا غلب الخوف امتزج بالرجاء وحسن الظن بالله تعالى تكون نتيجة ذلك العدل والعفو والاستقامة في السلوك والتصرفات[٧١] . أما الفقر فهو عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه[٧٢] والفقر يكون سببا في حسن الخلق والفضيلة وهو على درجات خمس أعلاها وافضلها هو الذي يتساوى عنده وجود المال وعدمه ولا يبالي إذا قل المال الذي بيده أو كثر بل أنه يهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره والأنشغال به وهذا هو الزهد[٧٣] فهو مرادف للفقر في أعلى درجاته ويقول الغزالي عنه أنه مقام شريف من مقام السالكين وهو عزوف النفس عن الدنيا طوعا وأختيارا مع القدرة عليها[٧٤] وله فائدة أخلاقية كبيرة لأنه سبب تربية النفس وصلاحها وأطمئنانها وسعادتها[٧٥] .

أما التوحيد والتوكل فهما من المقامات الصوفية المتلازمة والمتوحدة ذلك لأن التوحيد هو اصل التوكل[٧٦] وأساسهما الإيمان القوي ويوضح الغزالي المراد من التوكل هو أن لا يؤخذ ذريعة لترك العمل والكسب فالمعيل لا يصح

توكله في حق عائلته وأنما يصح توكله في أمور منها القدرة على الأمساك عن الطعام لمدة أسبوع مثلاً[٧٧] فالتوكل الذي يعنيه الغزالي هو الثقة بالله وحدة والتي تبعث الطمأنينة في القلب وتؤدي إلى راحة النفس وتجلب الرضا حتى لا تقع في الأوهام والمخاوف والزلل أو الخطأ في السلوك .

ومن أهم البواعث وأقواها على الأخلاق المحمودة أو الصوفية هي المحبة والشوق والأنس والرضا فالمحبة ميل الطبع إلى كل ما هو لذيذ وجميل وحسن ومن ذلك حسن الأخلاق وجمالها ومن أحب الأشياء إلى الإنسان هو محبته لدوام نفسه ثم محبة من أحسن إليه وبما أن الله سبب بقاء الإنسان فهو المحسن وهو الجميل الحسن فلا مستحق للمحبة الا هو[٧٨] . ثم يتحدث عن الأخلاص وهو مقلم يتعلق بتصفية العمل وتخليصه من الشوائب فإذا خلص الفعل عن الرياء وكان الله تعالى فهو خالص[٧٩] وهذا هو الأخلاص أم الصدق فهو يطلق على الصدق في القول والنية والوفاء بالعزم والعمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ومن أتصف في هذه الأمور كلها فهو الصديق[٨٠] فالصدق والأخلاص متلازمان وهما دافع قوي للخلق الحسن .

يشير الغزالي بعد ذلك إلى مقام المراقبة والمحاسبة وهما ينبعان من الإيمان بالحساب في يوم البعث الأكبر فيكون هذا الإيمان باعثاً على الاستقامة في العمل فيجعل الإنسان عقله رقيباً على نفسه يحاسبها على كل أفعالها وتصرفاتها ويزنها بميزان الشرع[٨١] . أما خير وسيلة لتهذيب النفس وردعها والحد من غطرستها وغلوها فهي فضيلة ذكر الموت لأنها أعظم وافضل واعظ ومعلم ومؤدب للنفس وهو خير علاج لرذيلة طول الأمل التي يقود إليها الجهل وحب الدنيا[٨٢] .

ومثلما ناقش الغزالي العديد من بواعث الأخلاق المحمودة أو الصوفية نجده أيضاً يشير إلى العديد من بواعث الأخلاق المرذولة في الجزء الثالث من كتاب الأحياء والذي سماه بربع المهلكات منها شره الطعام إذ يؤكد شهوة البطن إذا

تجاوزت حد الأعتدال تكون مصدرا لجميع الشرور والآثام وباعثا لكل خلق رذيل من رياء وتفاخر وتكاثر وكبرياء وحقد وحسد وعداوة وكلها تقود الى البغي والمنكر والفحشاء[٨٣] ومنها أيضاً كثرة الكلام إذ يقول الغزالي "أعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره الا بالصمت"[٨٤] فكثرة الكلام رذيلة . واللسان أكثر الجوارح أثراً في القلب فكثرة الكلام تميمة وهو مصدر لكثير من الرذائل عد منها الغزالي عشرين رذيلة يسميها آفات اللسان[٨٥] وكذلك آفة الغضب والحقد والحسد وهي مترابطة فيما بينها فالغضب ينتج الحقد والحقد يقود إلى الحسد فالغضب شعلة من النار تعمل على غليان دم القلب لطلب الانتقام[٨٦] الذي يؤدي إلى الحسد وكلها تولد العداوة والبغضاء والعجب والتكبر والبخل وعلاجها يكون بمعرفة ضررها في الدنيا والآخرة ومنها كذلك البخل وحب المال وكلها من الصفات الذميمة في النفس تجعل صاحبها محتقراً يمقته الناس وموضع غضب الله وسخطه ومنها أيضاً الكبر والعجب وهما مذمومان لكونهما دائين مهلكين أما الغرور فهو أيضاً صفة ذميمة من صفات النفس المهلكة وهو منبع الشقاوة والغفلة[٨٧] .

ما الذي يريده الغزالي من كل ذلك أي من بيان بواعث الأخلاق المحمودة أو بواعث الأخلاق المرذولة ؟ أنه يهدف إلى بيان طرائق الخير المودي إلى السعادة وطرائق توقي وتجنب معوقاتها . لكن أي سعادة يريدها الغزالي من ذلك كله التي جعلها الغاية القصوى لأخلاقية تصوفه ؟ أنها السعادة الآخروية التي وصفها بأنها بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر يخالطه وهذه هي السعادة الحقيقة . فإذا كانت هذه حقيقة السعادة عند الغزالي فما هو الطريق الذي رسمه لها ؟ وبأي وسيلة ينالها الفرد في الدنيا أو في الآخرة ؟ يجيب الغزالي على ذلك بأن طريق السعادة ووسيلتها أمران لا ثالث لهما الأول هو العمل والثاني العلم ، العمل لتطهير النفس وإزالة ما لا ينبغي أن يسودها من بواعث الأخلاق الذميمة التي أشرنا إليها لأن ذلك كله يلفتها عن غايتها وكمالها والثاني العلم الذي لابد منه لهذا الكمال والصوفية يرون تقديم المجاهدات بمحو

الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكل الهمة إلى الله تعالى[٨٨] هذا طريق الصوفية كما أوضحه الغزالي والذي أراد فيه أن يجمع بين العلم الذي يحصل عليه بالبحث النظري ثم لا بأس بعد ذلك من الأنتظار والترصد لفيض من الله تعالى لينكشف به من الأمور الإلهية ما لم ينكشف بالعقل[٨٩] ولابد قبل ذلك من إكمال النفس بالفضائل وتهذيبها وأتسامها بالفضيلة كمقدمة ضرورية ولازمة لطلب العلم ونيله ، ومع تأكيده الجمع بين الأمرين الا أنه كان يرى السعادة الحقيقية لا تتم الا بإصلاح الجزء العلمي من النفس[٩٠] لذا كان ميالاً إلى طريق الصوفية ولا يتردد بوصفهم هو السالكون لطريق الله خاصته وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرائق وأخلاقهم أزكى الأخلاق[٩١] .